بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من العلوم الحديثة التى نالت شهرة بعيدة ، وقيمة كبيرة ، وأصبح لها شأن فى الحياة ، ومكان ممتاز بين العلوم : علم النفس . وهو حديث لأنه لم يتحرر من قيود الفلسفة التى كان عبئا عليها وفرعا منها ، مكتسبا صبغة علمية بحتة ، ورداء وضعيا [1] يجعلنا نسطره فى قائمة العلوم كالطبيعة والكيمياء . . . إلا قريبا . وهو علم يبحث فى الحياة النفسية للإنسان ، لهذا نجد له علاقة بكل مايعمله الإنسان . وليس أحب إلى الإنسان وأولى باهتمامه من دراسته لنفسه ، ومن هنا نشأت أهميته والحاجة الماسة إلى تعلمه . ولما كان علم النفس هو العلم الذى يبحث فى نفسك ويعلمك من أنت ، فإنك ولا شك قد تعجب كيف تجهل نفسك التى هى أشد الأشياء اتصالا بك ويزداد بك العجب ، كيف يمهد لك سبيل هذه المعرفة شخص آخر ، وأنت أدرى الناس بنفسك ! ؟

والجواب على هذا يسير ، إذ أن الإنسان لايجذب نظره إلا الشىء الغريب النابى عن مجرى حياته وعاداته . ولذا كانت الأشياء التى وجه الإنسان إليها عقله وتوفر على التفكير فيها هى : الشمس والقمر والنجوم والكواكب التى هى أبعد الأشياء عنا ؛ وقد ظل الإنسان يبحث فى العالم الخارجى ، فى الرياضيات ومظاهر النبات ، وفى عجائب الحيوان ، صادفا عن النظر إلى داخل نفسه حتى فطن

---

(١) Positive

سقراط إلى ضرورة دراسة النفس الإنسانية أولا ، لأنها أجدر وأولى من دراسة العالم الخارجي ، ولذا قيل : إن سقراط هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى أول من حوّل اتجاه أفكار الناس من العالم الخارجي إلى العالم الداخلى .

لمحة من تاريخ العلم :

قلنا إن علم النفس كان فرعا من الفلسفة ، والواقع أن العلم والفلسفة ظلاَّ زمانا طويلا — وفى علوم كثيرة غير علم النفس أيضا — مختلطين لا يمكن التمييز بينهما ، لأن الذى يميز العلم إنما هو تمحيص المظاهر أولا ، والروح التجريبية ثانيا ، وخضوع النظريات للحقائق ثالثا ، بينما الفلسفة تقنع بالنظر العقلى الذى يستمد تماسكه من التسلسل المنطقى ، فتقتصر على المسائل التى لا يمكن إخضاعها للتجربة والتحقيق .

وقد بحث اليونانيون فى علم النفس كما بحثوا فى غيره من العلوم ، ولكنهم واجهوا العالم فى أبحاثهم بنظرة عملية تارة ، وبنظرة فلسفية تارة أخرى ، دون أن يفصلوا بين النظرتين ، حتى جاء « أرسطو » الذى وجّه عنايته نحو عالَم الطبيعة يلاحظ ظواهرها ، ويجمع حقائقها ، فكانت الخطوة الأولى الجريئة نحو فصل العلم عن الفلسفة إلى حد ما . هـذا وقد جمع أرسطو كثيرا من الحقائق فى علم النفس اتخذها علم النفس الحديث أساسا له فى بحثه ، ولا يزال يعتمد على بعضها فى كثير من الأحوال . ثم هبت على العالَم أجمع بعد ذلك ريح من الركود العلمى لا يهمنا الآن بحث أسبابه ، إلى أن كان عصر النهضة ، نهضة الفكر ، فبزغ نجم ديكارت فى سماء ذلك العصر ، وسجل كثيرا من الملاحظات العلمية الخاصة بالعمليات العقلية . واستمرت هـذه الحركة عند المدرسة الإنجليزية (هوبس ،

ولوك ، وهيوم ، وهاملتون ، واستيوارت ميل . . ألخ) فى صورة أخرى ، فى صورة تجريبية ؛ ولـكنهم رجعوا إلى البحث الفلسفى مرة أخرى فيما يختص بعلم النفس ، فلم تصبح لآرائهم القيمة العلمية .

هذا وقد ظل الكثيرون يحاربون إخراج علم النفس من الفلسفة وعلى رأسهم « أوجست كونت (١) » الذى أنكر وجود علم النفس علما قائما بذاته ، مهاجما بهذا الإنكار طريقة التأمل الباطنى — وهى المنهج الأول الذى يعتمد عليه علم النفس — مهاجمة عنيفة ، ولـكن — رغم كل ذلك — أثبت العـلم وجوده ، إذ ثمة موضوع خاص له ومنهج مستقل لدراسته ، كما سيأتى بعد .

---

(١) Auguste Comte.